محاضرة بجامعة السوربون بفرنسا

من أقوال العلامة

القديس اكليمنضس الاسكندري

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

محاضرة بجامعة السوربون بفرنسا

من أقوال العلامة
القديس اكليمنضس الاسكندري

نشرها

M. l'Abbé Freppel
professeur à la Sorbonne
Paris 1865

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين ؟

أبينـا الطوباوى المكرم رئيس الأساقفة

الأنبا كيرلس السادس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

من أقـــوال العلامة

القديس اكلمنضس الاسكندرى

تفسير

« مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غنى الى ملكوت السموات » مت ١٩ : ٢٤ .

مترجم عن الفرنسية من :

" Clément d'Alexandrie" Cours d'éloquence sacrée fait à la Sorbonne par N.l'Abbé Freppel, professeur à la Faculté de Théologie de Paris
1864 - 1865 Paris
Ambroise Bray, Libraire - Editeur 1865

مقدمة

فى السنة الدراسية ١٨٦٤ – ١٨٦٥ م فى جامعة السوربون بباريس كلية اللاهـوت ، ألقى الأب الدكتور « فريـل » Abbé Freppel سلسلة محاضرات عن العـالم مدير جامعة الاسكندرية الفلسفية اللاهـوتية الشهيرة القديس اكلمنضس الاسكندرى الذى عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث . وقد طبعت هذه المحاضرات فى كتاب أصدره «امبرواز برى» Ambroise Bray فى باريس سنة ١٨٦٥ .

وفى هذا الكتـاب يبين الأستاذ المؤلف الأب الدكتور فريبل أهمية جامعة الاسكندرية اللاهوتية والدور المظيم الذى لعبته فى محاربة أعـداء المسيحية فى القرون الأولى من الفلاسفة الوثنيين وأصحاب التعاليم الفاسدة .

نعم كان ظهور هذه الجامعة بتدبير من العناية الإلهية لتكون أداة لتفسير وشرح ونشر التعاليم المسيحية التى كان لابد لها أن تنتشر فى جميع أنحاء العالم عن طريق ائمة علماء اللاهوت .

القديس العلامة اكلمنضس الاسكندرى المعلم الأول توضع

أقواله فى جامعة السوربون موضع الاعتبار ؛ فقـــد أتى فى تفسير الكتاب بالعجب العجاب. وقد تناول الأستاذ البروفسير د . فريبل فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر تحليل أقوال القديس اكلمنضس صاحب هذا التفسير الفريد ، الذى كان مديراً لجامعـــة الاسكندرية بعد بانتينوس ، والذى تعلم على يديه أوريجانوس الشهير وجمع لا يحصى من القدماء ، حتى استعادت تعاليمه جدتها واشرقت حيويتها لتلقى على المحدثين من أرباب المعرفة . وأن الأستاذ فى سياق حديثه فى محاضراته ذكر الكثير من نصوص مؤلفات هذا المعلم القديم ، معلم الكنيسة القديس اكلمنضس .

وإليك فى هذا الكتاب ترجمة بعض هذه النصوص وكذا ترجمة بعض تعليقات الأب الأستاذ فريبل فى جامعة السوربون على مؤلفات العالم الكبير التى مضى عليها حوالى ثمانية عشر قرناً من الزمان ولا تزال تعتبر من أدق ما كتب فى شرح وتفسير الإنجيل المقدس وتعاليم الرب يسوع المسيح .

° ° °

ظهر هـــذا الكتاب الذى يتضمن موجز مقالة القديس باليونانية ، بعد تعب وزمن طويل فى البحث والاسترشاد بأحد الأساتذة الدكاترة الملمين باليونانية وآخر غيره وبعد بعض أسفار.

المعانى الكبيرة

وراء قول السيد :

« مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخـــل غنى إلى ملكوت السموات » مت ١٩ : ٢٤ .

أى غنى يمكنه أن يخلص ؟

ان مسألة العلاقات بين الغنى والفقير ، أو بعبـارة أخرى مسألة استعمال الاموال الأرضيـــة هي مسألة رئيسية جعلت اكليمنضس الاسكندرى يكتب عنها كتاباً خاصاً سماه : « أى غنى يمكنـه أن يخلص » "Quel riche peut être sauvé" يعرض ويناقش فيه واجبات الأغنياء .

وهذا الكتاب القديم ليس له مثيل فى فصاحته عن تعاليم المحبة .

وقد اكتشف المخطوط فى الفاتيكان فى بداية القرن السابع عشر متيو كاريوفيل « Mathieu Cariophyle » رئيس أساقفة ايقونية Icone .

° ° °

يقول الأستاذ الأب المحاضر فى السوربون :

كان بعض من المؤمنين فى الاسكندرية ينظرون إلى الغنى كأنه يتنافى مع خلاص النفس ، وذلك لنقص تعليمهم. فإذ كانوا مقتنعين أنه ليس لهم نصيب فى الميراث السماوى، كانوا يتهافتون على ملذات هذه الحياة الزائلة ، ويتركون طلب السعادة فى الحياة الأبدية . والأمر الذى كان بالاخص يحملهم على اليأس كان تفسيرهم الخاطىء لكلمات المخلص له المجد عن صعوبة خلاص الاغنياء . فلكى يحيى ثقتهم من جديد ، رأى اكلمنضس من واجبه توضيح معنى هذه الكلمات ؛ وهذا هو موضوع كتابه .

تعرفون جميعكم أيها السادة هذه الكلمات الشهيرة التى ترن منذ ثمانية عشر قرناً فى آذان الاغنياء كأنها انذار رسمى . ان اكلمنضس يذكر أولا فى أية ظروف قيلت هذه الكلمات .

شاب غنى جداً ذو مرتبة ممتازة يقترب من المخلص ويسأله عن الخير الذى يجب أن يصنعه لكى يكون له نصيب فى الحياة الأبدية . فبعد أن قال له الرب أن الله وحده صالح ، وبالتالى أن إرادة الله هى قاعدة الخير، أخذ يذكر له بعض الوصايا الموجودة فى لوحة الناموس الثانية . ويعلن الشاب أنه حفظ كل هذه الوصايا ثم يسأل عما يبقى له أن يصنعه . فيرد المخلص : « ان أردت أن

تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » مت ١٩ : ٢١ . فعند هذه الكلمات مضى الشاب حزيناً لانه كانت له مقتنيات كثيرة .

حينئذ التفت الرب يسوع المسيح نحو تلاميذه وقال لهم كم يصعب دخول المتكلين على أموالهم إلى ملكوت الله . « مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » مت ١٩ : ٢٤.

قال التلاميذ متعجبين من هذا الكلام : ولكن من يستطيع أن يخلص ؟

فنظر إليهم المخلص وقال غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله .

هذه الواقعة ينقلها المعلم الاسكندرى ليفسرها ويوضحها. وقد جاء فى نص الإنجيل المقدس :

« وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية . فقال له لماذا تدعونى صالحاً . ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله . ولكن إن أردت أن تدخل الحيوة فاحفظ الوصايا. قال له أية الوصايا. فقال يسوع لا تقتل

لا تزن . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك . قال له الشاب هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فماذا يعوزني بعد . قال له يسوع ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً . لأنه كان ذا أموال كثيرة .

فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات . وأقول لكم أيضاً أن مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله . فلما سمع تلاميذه بهتوا جداً قائلين . إذاً من يستطيع أن يخلص . فنظر إليهم يسوع وقال لهم . هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع . فأجاب بطرس حينئذ وقال له ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك . فماذا يكون لنا . فقال لهم يسوع الحق أقول لكم أنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط اسرائيل الاثني عشر . وكل من ترك بيوتاً أو اخوة أو اخوات أو أباً أو أماً أو إمرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحيوة الأبدية . ولكن

كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين » مت ١٩ : ١٦ — ٣٠ .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحيوة الأبدية فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً . ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا . لا تزن . لا تقتل . لا تسرق . لا تشهد بالزور لا تسلب . اكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يامعلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد . اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملا الصليب . فاغتم على القول ومضى حزيناً لانه كان ذا أموال كثيرة .

فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله . فتحير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم يابني ما أعسر دخول المتكلين على الاموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله . فبهتوا إلى الغاية قائلين بعضهم لبعض فمن يستطيع أن يخلص . فنظر إليهم يسوع وقال . عند الناس غير مستطاع . ولكن ليس عند الله . لأن كل شيء مستطاع عند الله .

وابتدأ بطرس يقول له ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك .
فأجاب يسوع وقال الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو اخوة
أو اخوات أو أباً أو اماً أو إمرأة أو أولاداً أو حقولا لاجلي
ولأجل الانجيل . إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً
واخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولا مع إضطهادات وفي
الدهر الآتي الحيوة الابدية . ولكن كثيرين أولون يكونون
آخرين والآخرون أولين ، مر ١٠ : ١٧ - ٣١ .

«وسأله رئيس قائلا أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحيوة
الابدية . فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً . ليس أحد صالحاً
إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا . لا تزن . لا تقتل .
لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك . فقال هذه كلها
حفظتها منذ حداثتي . فلما سمع يسوع ذلك قال له يعوزك أيضاً
شيء . بع كل ما لك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء
وتعال اتبعني . فلما سمع ذلك حزن لأنه كان غنياً جداً . فلما رآه
يسوع قد حزن قال ما أعسر دخول ذوي الاموال إلى ملكوت
الله . لأن دخول جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غني إلى
ملكوت الله . فقال الذين سمعوا فمن يستطيع أن يخلص . فقال
غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله . فقال بطرس ها نحن

قد تركنا كل شيء وتبعناك . فقال لهم الحق أقول لكم أن ليس
أحد ترك بيتاً أو والدين أو اخوة أو إمرأة أو أولاداً من أجل
ملكوت الله . إلا ويأخذ في هذا الزمان اضعافاً كثيرة وفي
الدهر الآتي الحيوة الأبدية ، لو ١٨ : ١٨ - ٣٠ .

أيها السادة ، يكفي أن نقرأ النص بانتباه لكي نرى أنه
لا يحوي أبداً أية دينونة للغني أو للملكية في حد ذاتها ، بل يحوي
نصيحة للكمال معطاة للبعض ، بالإضافة إلى عدم التعلق بالمال مما
يلتزم به الجميع .

حينما نريد أن نفهم نصاً في الإنجيل ، يجب أن نعتني بفحصه
في حد ذاته ، وفي علاقاته مع ما يسبقه وما يتبعه . لم يُلزم
المسيح كل المؤمنين بأن يبيعوا مالهم ويعطوا ثمنه للفقراء ، بل على
العكس ، قال للشاب الغني : « ان اردت أن تدخل الحيوة فاحفظ
الوصايا » مت ١٩ : ١٧ .

ما يلتزم به الجميع هو أن الخلاص يتوقف بالنسبة للكل على
حفظ الوصايا . لكن الشاب يلمح ؛ أنه لا يريد أن يتوقف عند
هذا الحد ؛ انه طموح ، يشعر بدعوة إلى حالة من الكمال أعظم
من الحالة العادية العامة .

حينئذ يقول له الرب : ان اردت أن تكون كاملا ، فجرد لنفسك تضحية أعظم ، تمسك بالفقر الاختيـــارى ، مثلما ترك تلاميذى كل شىء لكى يتبعونى .

لا يمكن أن نميز بأكثر وضوح بين الوصية والنصيحة : فالاولى هى القاعدة العامة ، والاخرى هى الاستثناء .

فاذا عرفنا ذلك ، نتساءل بالنسبة للذين أخذوا هذه الدعوة الغير عادية ، هل يتساوى أن يطيعوا صرخة ضميرهم أو أن يكتموها ؟ بالطبع لا . انهم يسيئون إلى أمر خلاصهم برفضهم الاستجابة إلى النداء الإلهى ؛ لأن كل إنسان ملزم بالسلوك فى الطريق الذى يشير به الله إليه . فإن بقى خارج هذا الطريق ، فإنه يحرم نفسه من النعم التى كان يمكن أن يناالها لو سلك فيه ، وهو يعرض نفسه فى الطريق الآخر إلى مخاطر ليس لها وجود بالنسبة للآخرين السالكين فى نفس الطريق .

كان الشاب المذكور فى الإنجيل يضع نفسه فى هذا الوضع الخطير . لذلك مضى حزيناً ، إذ كان منقسماً بين الرغبة فى الدخول فى حالة الكمال التى كان يشعر أنه مدعـــو إليها ، وبين تعلقه بالاموال الارضية . كان يتصرف بعكس ماهو مقتنع به . ويشهد

برفضه أنه يضع المصالح الزمنية فوق المصالح الروحية . فمن هنا يبتدىء المسيح يبين لتلاميذه خطر الاموال .

إذن ، بتأكيد المخلص صعوبة خلاص الأغنياء ، يوجه كلامه لاولئك الذين تمنعهم أباطيل العالم من أن ينصتوا لصوت الله وضميرهم ، لاولئك المتكلين على أموالهم ، حسب تعبير القديس مرقس البشير . فعلى هؤلاء عبيد المال ينطبق المثل : « دخول جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » لو ١٨ : ٢٥ .

يظن بعض المفسرين أنه كان فى أورشليم باب ضيق يدعى لهذا السبب « ثقب الابرة » ، وأن الجمال كانت تمر به بصعوبة . هذا أصل المثل الذى كان اليهود يستعملونه كثيراً ، وهو الموجود أيضاً فى تلمود بابل ، مع الفرق الوحيد ، أن فيه الفيل بدل الجمـــل .

أما المفسرون الذين يترجمون كلمة جمل بكلمة حبل ، فإنى أرى أنهم ليسوا على حق .

مهما كان الأمر ، فإن اليهود كانوا يستعملون هذا المثل للتعبير عن صعوبة بالغة .

بالتأكيد كانت المقارنة قوية، ونفهم أن الرسل إذ لم يفهموا معناها ، أظهروا تعجبهم. لكن الرب يسوع المسيح طمأنهم بأن اضاف : « غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله » .

تكون الأموال خطرة على الإنسان الساقط بسبب ميله إلى الشر : فهي تجعله متعلقاً بالأمور الارضية ، وتغذى كبرياءه وتعطيه وسيلة سهلة لاشباع أهوائه ؛ لكن تعاليم الإيمان والنعمة كفيلة بأن تهدم هذا العائق بفصلها الإنسان عن الأموال الخارجية وبجعلها إياه على الاستفادة من امكانياته لكي يضاعف أعماله الحسنة ويخفف آلام اخواته .

هكذا فهم الرسل القديسون تعليم الرب مخلصنا وهكذا فسروه ، وكذلك فعل التقليد المسيحي من بعدهم .

يقول القديس اكلنضس الاسكندري :

« إذا كنت وأنت غني تنظر إلى الذهب والفضة والبيوت التي تمتلكها كأنها عطايا من الله ؛ وإذا كنت تعيدها إلى الله الذي وهبها لك في شخص اخوتك ، معترفاً بهذا انك تمتلكها من أجل الآخرين بالاحرى من انك تمتلكها من أجل نفسك ؛ وإذا

كنت ترتفع فوق هذه الخيرات فتعرف كيف تأمرها بدلا من أن تكون عبداً لها ؛ وإذا كنت لاتحملها في روحك، ولاتقصر أفق حياتك على حدودها الضيقة ، مجتهداً دائماً في كل عمل صالح ؛ وإذا كنت عندما يلزم أن تحرم نفسك منها ، تتحمل خسارتها بنفس هدوء الروح الذي تتمتع به وسط وفرة غناك : « ففي هذه الحالة تكون ذلك الذي طوّبه الرب ودعاه مسكيناً بالروح، وتكون في حالة الاستعداد الواجبة لكي يكون لك نصيب في ملكوت السموات ، بالاكثر كثيراً مما لو كنت تلقى عنك حمل خيراتك لسبب واحد انك عاجز عن حملها » .

ويقول أيضاً القديس اكلنضس :

« إذا كان الإنسان الذي يولد وسط الغنى بالرغم منه مرفوضاً من الحياة لهذا السبب وحده إنه غني، فبالتأكيد يكون خالقه قد ظلمه بحرمانه من الحياة الأبدية بسبب الخيرات الزمنية التي قد جعلها نصيباً له . وماذا تكون الحاجة أن تنتج الارض كل هذه الخيرات ، طالما أن الخيرات تعطي الموت ؟

لا ، إذا كنت في داخل نفسك تعرف كيف لا تجعل لكنوزك سلطاناً عليك ؛ إذا كنت تستعملها بحكمة وباعتدال ؛

إذا كان هدفك هو الله وحده ، حتى تكون له وتتحدث إليه ، فأنت فقير بكل معنى الوصية ، أنت حر ، لا تقهر ، ولن تسبب لك الاموال مرضاً أو جرحاً .

وفى حالة القبض، مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من دخول غنى من نوعك إلى ملكوت الله » .

• • •

يمضى الأب فريبل العـــالم اللاهوتى الاستاذ فى جامعة السوربون فى محاضرة، فيقول :

هذا هو المعنى الحقيقى لوصايا الإنجيل . لا يجب أن نلوم المال ، بل نلوم سوء استعماله ؛ كذلك ليس فضلا أن يكون الإنسان فقيراً ، ولكنه فضل أن نمارس مسكنة الروح أى عدم التعلق بالأموال . يقول القديس اكليمنضس الاسكندرى أن خلاصنا لايتوقف على الأشياء الخارجة عنا ، سواء كانت كبيرة أم صغيرة ، قوية أم ضعيفة ، باهرة أم غامضة ، لايهم ؛ ما نجعل لنا قيمة هى فضائل الروح ، الإيمان ، الرجاء ، المحبة ، الحب الأخوى ، اللطف ، الاتضاع ، محبة الحق : هذا هو ما يخلاصنا.

يمكن أن يكون الإنسان فقيراً فى المال وغنياً فى الرذائل؛ كما يمكن أن تكون للإنسان خيرات عظيمة وفضائل كبيرة .ذاك محترق متعطشاً إلى الأموال وسط الفقر ، والسبب الوحيد الذى يمنعه من عمل الشر أكثر هو أنه لا يملك فعل الشر؛ وذاك الآخر يعيش فقيراً وسط الغنى ، ويعرف كيف يمتنع عن الشر، بينما هو عنده كل التسهيلات لاقترافه . الفرق بين الاثنين هو الفرق بين الرذيلة والقداسة .

كيف تسخر المال للخدمة ؟

يقول القديس اكليمنضس : « يجب ألا نرفض بعيداً عنا الأموال التى يمكن أن تكون نافعة للقريب . انها تدعى ممتلكات لأن طبيعتها أن تكون مملوكة ؛ وتدعى ميزات لانها نافعة للإنسان الذى يتفضل الله بتمليكها له . انها فى يدى من يعرف كيف يستخدمها مادة الخير وعدته . فإذا صنع أحد شيئاً حسب قواعد الفن ، يكون عمله حسناً ؛ وإذا كان الفن ناقصاً، فالخطأ يرجع إليه هو وليس للمادة التى يستعملها . ونفس الشىء يحدث بالنسبة للأموال : انها ليست سوى عبدة . ان أحسنت استعمالها فهى تخدمك فى ممارسة الحق . وان استخدمتها فى الشر فسوف تصير فى يديك نبعاً للشر . لان طبيعتها أن تخدم لا أن تأمر . فهى فى حد ذاتها ليست حسنة ولا رديئة ، فلا تستحق كذلك مديحاً أو لوماً : ما يجب اعتباره هو الروح البشرية التى بموجب حريتها ، لها وحدها السلطان على استعمال هذه المواهب بحكمة ، أو إساءة استعمالها . إذاً لا يجب أن نهدم أموالنا، بل نهدم اهواء الروح التى تمنع استخدام الأموال من أجل الخير. صيروا أمناء مستقيمين وسوف لا ينقصكم حسن استعمال كنوزكم » .

« اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم فى المظال الأبدية » لو ١٦ : ٩.

لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لايفسد سوس ولا صدأ وحيث لاينقب سارقون ولا يسرقون » مت ٦ : ١٩ - ٢٠ .

كيف نطعم الجوعان ، ونسقى العطشان ، ونكسو العريان ، ونرحب بالغريب الذى يأتى إلينا ؛ كيف نحفظ كل هذه الوصايا التى يعاقب من يتعداها بالنار والظلمة الخارجية إذا كنا نحن أنفسنا تنقصنا كل هذه الأشياء ؟

ألم يأمر الرب زكا ومتى اللذين كانا غنيين وعشارين أن يستضيفاه ؟ لم يأمرهما بتضحية كل أموالهما ، بل قال : « اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن ابراهيم » لو ١٩ : ٩.

إذن فهو يمتدح استعمال الأموال بشرط أن نُشرك فيها الآخرين فنسقى العطشان ونطعم الجوعان ونكسو العريان ونفتح للغريب بابنا مرحبين .

لا يستطيع أحد أن يعطى إن كان هو نفسه لا يملك شيئاً . فلو كان كل شيء ملكاً لكل الناس ، لما كان هناك أى فضل فى ممارسة عمل الرحمة . ان المسيح لايدين الغنى فى حد ذاته ، بل يرى فيه وسيلة لنزال الاجر السماوى بممارسة المحبة .

* * *

اننا نحتاج بعضنا لبعض بالاخص لاننا لا نملك كلنا نفس القدرات ولا نفس الامكانيات .

* * *

بالحقيقة لايستطيع الاغنياء أن يستغنوا عن الفقراء ، وان الخدمات متبادلة . هذا يعطى من عقله ، وذاك من عمل يديه ، والجميع يعطون من وجداتهم ومن حياتهم . وهذا هو أساس عظمة المجتمعات البشرية وقوتها .

* * *

نقرأ فى سفر أعمال الرسل أن المؤمنين الاوائل فى أورشليم إذ كانت تدفعهم روح الاخوة المسيحية، **كانت اموالهم مشتركة** لكن لا يجب أن نبالغ فى طبيعة هذا الامر ولا فى معناه . اننا نجد الوصية الإنجيلية بالفقر الاختيارى قد مارسها المسيحيون

الاوائل على نطاق واسع ، كما هو الحال أيضاً اليوم فى مجموعات الرهبان فى العالم أجمع .

على أن هذه الظاهرة ليس فيها ما يدعونا للعجب أبداً ، إذا كنا نفكر فى عدد المسيحيين القليل الذين كانوا فى أورشليم فى ذلك الوقت، وفى روح الإيمان والمحبة التى كانت فى المؤمنين الجدد.

فبجانب قانون عدم التعلق الملزم للجميع ، كان المخلص له المجد قد رسم للبعض قاعدة عليا للكمال أكثر صعوبة فى إتباعها. فبكل بساطة كان معظم المؤمنين قد تجردوا من ممتلكاتهم فى طفرة كريمة ووزعوها على اخوتهم المحتاجين.

لكن هل يتبع هذه الحركة التلقائية للايمان القوى أن امتلاك الاشياء كان محرماً ؟ كلا ابداً . ظلوا أحراراً فى بيع ممتلكاتهم أو الاحتفاظ بها . فقد كان يجب ألا يضيفوا على أنفسهم شرف التنازل عن أموالهم ما لم يشعروا بمقدرتهم على ممارسة هذا التنازل ؛ كما فعل حنانيا وسفيره . هذه الكذبة المغرضة وهذا الاختلاس الخاطىء هو ما كان يأخذه عليهما القديس بطرس بكل تلك الشدة . قال لهما : « أليس وهو باق كان يبقى لك. ولما بيع ألم يكن فى سلطانك .فما بالك وضعت فى قلبك هذا الامر. أنت لم تكذب على الناس بل على الله » أع ٥ : ٤ .

هكذا فهم الرسل والتلاميذ وصايا الرب ؛ ونرى مما كتبه القديس اكلنضس الاسكندرى أن الجيل التالى قد فسر تعاليم المسيح بنفس المعنى .

ان الاحتفاظ بالروح حرة طاهرة خالية من كل تعلق غير مرتب بالكنوز الزائلة ، وإعطاء الزائد للفقراء ، هى واجبات الأغنياء بحسب الإنجيل .

* * *

تقديس أعمال الرحمة

يقول القديس اكلمنضس :

« يا لهذه التجارة العجيبة ! يا لهذه الصفقة الإلهية ! شراء الخلود بالمال ، ونوال المسكن الأبدى فى السماء بدلا من الأشياء الزائلة فى هذا العالم !

أيها الغنى يجب عليك أن تسير نحو مثل هذا السوق ، إذا كنت حكيماً . تجوب إن لزم الأمر كل الأرض ؛ لا توفر أعمالا أو أتعاباً حتى تشترى ملكوت السموات طالما تستطيع أن تفعل ذلك فى هذه الحياة . لماذا تضع مسرتك فى فصوص الزمرد أو الأحجار الكريمة الأخرى ، فى العمارات التى سوف تصير غذاء النار أو لعبة الزمن : تكفى زلزلة لكى تقلبها ، وتكفى نزوة طاغية لكى يسلبها منك . لتكن رغباتك أن تسكن فى السماء . وتملك مع الله . هذا الملكوت سوف يعطيه لك الله نظير القليل الذى يأخذه منك ، ويعطيك أن تسكن معه إلى الأبد أضرع إليه أن يقبل ، ألح فى

طلبك وتوسل إليه خشية أن يرفض. لأنه من ذا الذى يُلزم الله أن يقبل ؛ ولكنه مطلوب منك أن تقدّم ...

اجمع حولك بخلاف عادة بقية الناس ، اجمع حولك جيشاً بدون أسلحة ، ليس له مهارة فى الحرب ، وغير قادر على سفك الدم ؛ جيشاً لا يجعل للغضب سلطاناً عليه ولا تدنّسه الرذائل: شيوخ أتقياء، وبتامى محبين لله، وأرامل مدرّبات على الوداعة، ورجال مزّينين بالمحبة . أجعل لنفسك بأموالك حراساً ساهرين حول جسدك وروحك . إن الله سوف يأمرهم ؛ فبهم ترتفع سفينتك التى أوشكت على الغرق ، فتسير فى هدوء بصلواتك . بوضع أيديهم يفقد المرض شوكته بالنسبة لك؛ وصلواتهم الحارة تجرّد العدو من سلاحه الذى يهددك به ؛ وإزاء أوامرهم سوف يجد الشيطان قوته قد إنكسرت ويخزى كبرياؤه فى أعماله . يكونون لك أتباعاً وجنوداً شجعاناً . لن يبقى أحد بلا عمل ؛ لن يكون أحد غير نافع لك . فالواحد يطلب من الله نعمة لأجلك؛ والآخر يعزيك فى أحزانك . هذا يسكب الدموع أمام الرب من أجلك؛ وذاك يعلّمك الأمور النافعة للخلاص . هذا سوف

يصحح لك خطأك بكل صراحة ؛ وذاك الآخر سوف يعطيك نصائح مملوءة عطفاً . وأخيراً ، الجميع بلا رياء ، بلا خوف ، بلا تمويه ، بلا تملّق ، يحيطونك بصداقة حقيقية .

أية حلاوة فى خدماتهم الحسنة ! أية حرية كريمة فى خدمتهم! أية صراحة فى إيمان هؤلاء الرجال الذين لا يخافون غير الله ! إنهم لا يعرفون معنى الكذب ؛ إن أعمالهم ليس لها هدف آخر سوى خدمة الله ؛ عبادته ورضاه هما كل ما يشتهون . ان تعلقهم بك ليس فيه شىء جسدانى ؛ إنهم يتكلمون مع ملك الدهور الساكن فيك » .

* * *

المحبة أقوى من سلطان المال

ثم يقول المحاضر : هذا أيها السادة هو المثل الأعلى الذى تسعى المسيحيـــة لتحقيقه على الأرض ، على قدر ما تسمح به كبرياء الناس وأهواؤهم : أن يجتمع الناس فى جمعيات تكون المحبة رباطها ، بحيث يجد البعض مصلحتهم الروحية فى العناية

بالمصالح الوثنية للآخرين ، وتزداد سـعادة كل واحد بسعادة الجميع ، هنا هو الهدف المستمر الذى تتجه إليه المجهودات .

° ° °

من الناحية المعنوية قد غيرّت المسيحية الغِنى كما غيرّت كل الأشياء الأرضيه : فالمسيحية إزاء محبة المال التى هى سبب هلاك نفوس الكثيرين تبين للمسيحى وسائط الخلاص . وقد صنعت المسيحية هـذا التحول بطريقة مزدوجه : بوصية عدم التعلق ، وبالنصيحة الإنجيلية بالفقر الاختيارى . انها تحرّم على الانسان أن يقيّد قلبه بالممتلكات الارضية ، وبذلك تعلمه الا يعتبرها إلا بقدر ما تسمح له بعمل الخير . . .

منذ ذلك الحين ، يتوقف الغنى عن أن يكون هدفه الوحيد هو الشبع الشخصى ، فيصبح وظيفة حقيقية ، خدمة عامة ، رسالة اجتماعية ، شركة فى عمل العناية الإلهية . من الواضح أن مثل هذه التعاليم كان لابد لها أن تغيّر وجه الارض .

° ° °

النعمة والحرية

« إن أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل ما لك وتعال أتبعنى »

بهذه الكلمات « إن أردت » يبين المسيح بأسلوبه الإلهى أن روح محدّثه كانت تمتلك حرية التصرف . للانسان أن يختار ، أنه حر ؛ والله يعطى للذين يريدون ، الذين يجتهدون بكل قوتهم ويلتمسون معونته ، حتى يصبح هكذا الخلاص عملا خاصاً بهم . لأن الله لا يرغم أحداً : « انه عدو العنف ؛ ولكنه يمهد السبيل للذين يبحثون ، يمنح الذين يطلبون ، يفتح الذين يقرعون . إذاً إن كنت تريد ، إن كنت تريد حقـــاً ، وكنت لا تخدع نفسك ، فاجتهد أن تحصل على ما ينقصك » .

هكذا حسب أكلمنضس الاسكندرى ، يختار الإنسان الخير أو الشر بحرية ، فيكون خلاص نفسه هو عمله الخاص . لا توجد ألفاظ أقوى من هذه لمحاربة التعاليم المشينة عن الإرادة المسخرة ، وعن إطفاء قوانا الروحية إطفاءً كلياً ، وعن سلبية الانسان

المطلقة فيما يختص بعمل خلاصنا . أنستطيع الوصول إلى هدفنا بوسائلنا الطبيعية وحدها ؟ إن فى ذلك لضلالة لا تقل خطورة عن الضلالة الأولى . ان أكلنضس يعترف :

(١) بضرورة النعمة .

(٢) بحقيقة حرية الانسان .

إنما العمـــل الإلهى فى إثارة النشاط البشرى وتحويله حتى يكون خلاصنا هو عمل الله وعملنا فى نفس الوقت . إن لم تكن هناك أية مشاركة من جانبنا ، لما كانت القداسة فضلاً ، ولما كانت الحياة الأبدية ثواباً ؛ وبدون النعمة أو العمل الإلهى ، نظل عاجزين عن الإتيان بأى عمـــل روحانى ، وأيضاً كنا لا نستطيع أن نكمل الناموس الطبيعى فى نطاقه الواسع ، بسبب ميلنا إلى الشر وضعف إرادتنا الحرة .

يقول مؤلف البحث « فى خلاص الأغنياء » : إن الإنسان الذى يريد بنفسه وبدون معونة أحد أن يغلب أهواءه ، لا ينجح فى ذلك . لكنه إن وضع فى ذلك كل عنايته وأظهر رغبة أكيدة

فى أن يبلغ ذلك ، فسوف يصل إلى هدفه بمعونة القدرة الإلهية. لأن روح الله يدخل فى النفوس ذوى النية الحسنة ، كما أن موهبة الروح القدس تنطفىء ممن ليس عنـــدهم هذه الرغبة . خلاص الناس بالرغم منهم هو الحد الأقصى للإرغام ؛ خلاص الناس باختيار إرادتهم الحرة هو عمل النعمة . ملكوت الله ليس للذين ينغمسون فى الملذات ، لكن الغاصبون ينالونه . التشدد الوحيد المرضى لله هو أن تنتزع موهبة الحياة الأبدية . ان الله يستجيب للنشاط الذين يجاهدون وفى ذلك مسرّته » .

هكذا تشترك النعمة الإلهية والإرادة البشرية معاً فى عملية خلاصنا .

* * *

يذكّر القديس أكلنضس الاسكندرى مسيحيى عصره بأن الإنسان يلزم أن يكون مستعداً للتضحية بكل شىء أخرى من أن يعصى الله ، فيذكر تلك الكلمات القوية التى قالها المخلص له المجد كما جاء فى إنجيل معلمنا لوقا البشير :

«إن كان أحد يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لو ١٤ : ٢٦).

يجب أن نعلم أن فى لغة الكتاب المقدس، كثيراً ما تعنى كلمة «يبغض» : «يحب أقل». هكذا حينما أراد التعبير عن تفضيل يعقوب على عيسو يقول :

«أحببت يعقـــوب وأبغضت عيسو» (رو ٩ : ١٣).

و (ملاخى ١ : ٢) يعنى بذلك أحببت هذا الأخير أقل من الأول، فلم أحبه مثل أخيه.

ونجد أيضاً عبارة شبيهة فى سفر التكوين، حيث يستعمل الكاتب المقدس كلمة «يبغض» بمعنى «يحب أقل»، لكى يبين أن يعقوب كان يفضل راحيل على ليئه. «وأحب أيضاً راحيل أكثر من ليئه. وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر. ورأى الرب أن ليئة مكروهة» (تك ٢٩ : ٣٠ - ٣١).

وكذلك فى سفر التثنية : «إذا كان لرجل امرأتان أحداهما

محبوبة والأخرى مكروهة» (تث ٢١ : ١٥).

ومن جهة أخرى فقد اعتنى الرب يسوع المسيح نفسه بأن يعلمنا أننا يلزمنا أن نفسر كلماته بهذا المعنى، إذ قال فى مكان آخر : «من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى. ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى» (مت ١٠ : ٣٧).

فالمعنى هنـــا بكل بساطة هو محبة تفضيلية يلزم أن يخضع أمامها فى حالة تناقض أو تعارض كل شعور آخر. فليس هناك جدال فى أن حقوق الخالق لها الأولوية على حقوق أية خليقة.

كان مخلصنا الصالح يعرف مقدماً أن البشارة بالإنجيل سوف تجلب حالة أزمة عنيفة فى البشرية، وأنه فى نقط كثيرة ستصير مشاعر المحبة العائلية فى جهاد ضد الوجوب على كل إنسان أن يؤمن. فكان يلزم إعداد النفوس لمثل هذا الجهاد، بأن يرسخ فيهم هذا المبدأ أنه ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس.

فلا نضلل أنفسنا أيها السادة بمشاعر كاذبة : إن رباطات الدم محترمة، وحقوق العائلة مقدسة؛ ولكن حقوق الله مقدسة

أكثر . إن الله له علينا سلطان مطلق فوق كل سلطان : انا له قبل كل شيء : وان أمر خلاص النفس يظل مسألة شخصية خاصة بكل فرد ، ونحن نتصرف على مسئوليتنا الذاتية.

بين الله الذى يأمر والناس الذين يدفعوننا إلى العصيان ، لا يوجد شك فى الإختيار : ليس هناك عائلة ولا دولة يمكن أن تمنعنا من إتمام أول واجباتنا وأقدسها .

المسألة مسألة الاعتراف بوجود الله ، ثم أن نضع محبة الله على رأس إلتزاماتنا .

ويقول القديس أكليمنضس الاسكندرى : « كيف يلزمنا ببغضة أهلنا ذلك الذى يأمرنا بمحبة أعدائنا ؟ إن ما ينهانا عنه هى المحبة العمياء غير المرتبة ، التى قد تحملنا إلى التضحية بحقوق الله من أجل إدعاءات الإنسان المفرضة ؛ وما يأمرنا به هو أن نرفض صوت الجسد طالما يدعونا للنكران فيصبح عائقاً لخلاصنا .

تصوّروا الأمر فى شكل قضية . يقوم الوالد من ناحية ويقول : « أنا الذى أنشأتك وغذيتك ، أتبعنى إذن ، واقترف الظلم معى ؛ لا تطع ناموس المسيح » .

ومن ناحية أخرى اسمعوا المخلص له المجد يرد عليه : « لقد جدّدتك أنت المولود للموت تحت سلطان العالم . لقد خلصتك وشفيتك وفديتك . وسوف أظهر لك وجه الله الآب الصالح . فلا تدعو إنساناً أباً لك ؛ دع الأموات يدفنون موتاهم . أتبعنى وسوف أقودك إلى مكان راحتى حيث تجد خيرات خفية لا ينطق بها ، خيرات لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر ، أسراراً يشتهى الملائكة أنفسهم أن يطلعوا عليها ، مشتاقين لرؤية ما أعده الله للقديسين ولأبنائه الذين يحبونه . أنا أطعمك ، أنا أعطى ذاتى كخبز ينجو آكله من كل أخطار الموت ؛ أنا أعطى ذاتى كشراب للخلود . أنا هو المعلم الذى يعلّم تعليماً أسمى من السماء . من أجلك جاهدت ضد الموت ؛ ودفعت الفدية باحتمالى الموت الذى كنت قد أستحققته بخطاياك وبعدم أمانتك نحو الله » .

لقد سمعتم الطرفين ، فاحكموا فى قضيتكم ذاتكم ، أنطقوا بالحكم ولكن لا تنسوا أن أمر خلاصكم يتوقف على الحكم . إذا كان أخوك أو إبنك أو زوجتك أو كان من كان يحدثك بمثل هذا الحديث ، فليغلب المسيح الجميع . أنصروه ، لانه يجاهد من أجلكم » .

هكذا كانت المسألة تظهر كثيراً فى القرون الأولى للكنيسة : كانت تقف بين إن حديث العهد بالإيمان ، وأب يريد أن يجره نحو الإنكار ؛ بين زوجة آمنت بالإنجيل ، وبين زوج مستعد لتسليمها للجلادين ، ولا يترك لها حرية ممارسة دينها . إن سير الشهداء مليئة بمثل هذه المناظر المؤسفة حيث كانت تتعارض حقوق الله مع المشاعر البشرية . لهذا السبب كان المخلص له المجد يؤكد بقوة لزوم تفضيل مصالح الخلاص قبل كل إعتبار آخر .

وفى ذلك ما كان أبداً يسىء إلى المشاعر العائلية ؛ لكنه كان يحدد لها حدودها الحقيقية بأن يجعلها خاضعة لمبدأ أسمى ، وهو سلطان الخالق المطلق على خلائقه .

ذكر القديس أكليمنضس مثل السامرى الصالح مع مثل الشاب الغنى لغرض واحد . فالمثل الواحد يصلح لتوضيح المثل الآخر ويبين لنا الترتيب الذى تتوالى به واجباتنا وتتصل .

محبة الله من كل النفس وبكل القوة ، هذه هى الوصية الأولى والعظمى ، لأنها تحتوى كل الوصايا الأخرى وتلخصها . ومحبة القريب كالنفس هى الوصية الثانية . يقول أكليمنضس أن المخلص يعلمنا بهاتين الوصيتين ناموس المحبة ، ولكن بنظام وتمييز بحيث تكون الأولوية دائماً لله . ونجد هنا برهاناً آخر على براعة فن كتّاب جامعة الاسكندرية فى الاستفادة من الأمثال ومقارنتها بعضها ببعض .

يقول القديس أكليمنضس : « ان أرواح الظلام التى تحكم هذا العالم كانت قد ضربتنا بقروح مختلفة : مخاوف ، وشهوات ، وغضب ، وأحزان ، واختلاسات ، وملذّات . قد أثاروا فى نفوسنا كل هذه الزوابع التى تهزها لكى يتأكدوا من هلاكنا . ويسوع المسيح هو الطبيب الوحيد الذى شفانا من جراحاتنا بأن قطع جذور رذائلنا ؛ وليس مثل الناموس الذى إقتصرت

جهوده العاجزة على فصـــل الثمار عن الورع الردىء ؛ بل أن يسوع المسيح قد وضع الفأس على أصل شجرة الشر ، وسكب على نفوسنا الجريحة نبيذاً ثميناً هو دم كرمة داود ؛ واستخرج من بواطن الروح الزيت الذى سقاها له بغـــزارة ؛ وأوثقها برباطـــات لا تنحل ، هى المحبة والإيمـــان والرجاء ، لقد سلّمنا إلى الخدمات الصـــالحة التى للملائكة والرئاســـات والسلطات ».

* * *

وإذ كان القديس أكليمنضس أميناً لخطته وهى أن ينقـــذ الأغنياء من اليـــأس ، فهو فى ختام كتابه على التوبة ، يحث أولئك الأغنياء الذين كان تعلقهم الأعمى بأموال وملذات هذا العالم قد قذف بهم فى الفوضى . وبعـــد أن ذكرهم أن التوبة الصادقة يمكن أن تمحو أعظم الخطايا ، يدعوهم أن يضعوا أنفسهم تحت قيادة مرشد يسمّيه « رجـــل الله » ؛ عليهم أن يحترموه ويخافوه ويطيعوه سواء أكان يؤنبهم ، أو يشرع فى علاجهم ؛ له الحق فى الكلام بحرية ، واستعمال الشدة تارة

واللطف طوراً لكى يكسبهم إلى الخـــير . هذا المرشد الذى يلزمهم أن يكرموه كأنه ملاك الله ، لا شـــك أيها السادة أن أكلمنضس الاسكندرى لم يكن يعـــنى به غير الكاهن فى سرّ التـــوبة .